المحاضرة 3: الرواد والتجربة الشعرية الجديدة1:

قصيدة الكوليرا لنازك الملائكة :

شعر التفعيلة :

شعر التفعيلة هو الشعر الذي يتخذ التفعيلة أساساً عروضياً للقصيدة، وهو لا يتقيد بعدد معيّن من التفعيلات في السطر الواحد، بحيث قد يشتمل السطر على تفعيلة أو أكثر وصولاً إلى اثنتي عشرة تفعيلة، ويخرج هذا الشعر عن مبدأ تساوي الأشطر، ولا يلتزم بقافية واحدة في كامل القصيدة، ومن أسمائه: الشعر المرسل، والنظم المرسل المنطلق، والشعر الجديد، والشعر الحر

*** نشأة شعر التفعيلة:**

بدأ شعر التفعيلة على يد الناقدة نازك الملائكة في بغداد بعد أن أصدرت قصيدة الكوليرا في تشرين الأول من عام 1974م، وقد أشارت إلى أنّ الشعر الحر أو شعر التفعيلة أكثر صعوبةً من شعر الشطرين (الشعر العربيّ الموزون المقفى)، كما أشار الدكتور عبد الهادي محبوبة أنّ التفعيلة موجودة في فنّ النثر أيضاً والموسيقى، وأنّ شعر التفعيلة هو أقرب للنثر منه للشعر.

* خصائص شعر التفعيلة:

- وحدة التفعيلة غالباً في القصيدة، وينظّم شعر التفعيلة على نوعين من البحور هما: البحور الصافية، وهي: الكامل، والرمل، والهزج، والرجز، والمتقارب، والمتدارك.والبحور الممزوجة هما: السريع والوافر.
- الحرية في عدد التفعيلات التي يحتويها كل سطر.
- التحرر من نظام الروي والقافية، حيث إنّ شعر التفعيلة لا يلتزم بهما كما يلتزم بذلك الشعر العربيّ، وذلك لأنّ التزام الروي يدخل في التكرار والملل -في رأي شعراء التفعيلة-، ويعطّل حرية الشاعر
- تأثر الموسيقى بالحالة النفسية الصادرة عن الشاعر وليس بالوزن الشعريّ.
- استخدام الرمزية التي يعبّر من خلالها الشاعر عن مشاعره الخاصّة أو ميله السياسيّ بطريقة يصعب على القارئ إدراك المقصود منها أحياناً.
- قبول التدوير، وهذا يعني أنّه من الممكن أن يأتي جزء من التفعيلة في نهاية البيت، وجزء منها في بداية البيت الذي يتبعه.

* أعلام مدرسة شعر التفعيلة:

أصدر عبد الوهاب البيّاتي ديوانه (ملائكة وشياطين) عام 1950م، وأضاف بهذا صفات جديدة إلى حركة الشعر العربيّ؛ فقد انصهر بمقاومة الشعب العراقيّ، مستغلّا الحرية التي أتاحها شعر التفعيلة من أجل التعبير عن همومه وإظهار آماله، وتوالت بعد ذلك العديد من الدواوين الشعرية، وأصبحت الدعوة لشعر التفعيلة تأخذ مظهراً أكثر قوّة من السابق بظهور شعراء جدد، منهم:

صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي من مصر، وأدونيس وخليل حاوي من لبنان، ونزار قبّاني من سوريا، وفدوى طوقان، ومحمود درويش وسميح القاسم من فلسطين، ومحمد الفيتوري ومحي الدين فارس من السودان. ومن روّاد شعر التفعيلة إلى جانب نازك الملائكة: بدر شاكر السيّاب، وعبد الباسط الصوفيّ، وصلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد الفيتوري، وأمل دنقل، ومحمود حسن إسماعيل.

تعريف بالشاعرة نازك الملائكة:

نازك الملائكة شاعرة عراقيّة تمثّل إحدى أبرز الشاعرات في الشعر العربي الحديث، وقد جمعت بين الثقافتين العربية والغربية. وُلدت الملائكة في بغداد عام 1923، وتخرجت في دار المعلمين عام 1944، وفي 1949 تخرجت في معهد الفنون الجميلة، وتابعت دراستها في جامعة برنستون وفي جامعة وسكونسن لإعداد الماجستير في الأدب المقارن، وتعد الملائكة من أبرز رواد شعر التفعيلة مع بدر شاكر السياب، وتعدّ "الكوليرا "من أولى قصائد شعر التفعيلة الملائكة، وسيتم تحليل قصيدة الكوليرا لنازك الملائكة في هذه المقالة، ومن دواوينها الشعرية: عاشقة الليل، شظايا رماد، شجرة القمر. ولها عدد من الكتب النقدية مثل: قضايا الشعر المعاصر 1962، الصومعة والشرفة الحمراء 1965، سيكولوجية الشعر وقضايا أخرى1993.

.نازك الملائكة وشعر التفعيلة :

يتّصل اسم نازك الملائكة بشعر التفعيلة أو الشعر الحرّ -حسب تسميتها له- وقد كان لها دور في التنظير لهذا الشعر الجديد في مقدمة ديوانها " شظايا ورماد"، وفيها حاولت أن تثور على العروض الخليلي في الشعر، وهذا أثر في الأوساط الأدبية والنقدية؛ إذ اختلف النقاد والشعراء حول هذا الشعر، وانقسموا بين مؤيّد ومعارض له، واختلف النقاد أيضًا حول قضية ريادة هذا الشعر أيضا هل هي نازك الملائكة أم بدر شاكر السياب، أم أن ثمّة من سبقهما إلى هذه الريادة الشعرية، ويرى بعض النقاد أن الملائكة هي رائدة هذا الشعر، والسبب في ذلك أنّها لم تكتبه فقط، وإنما نظّرت له في كتابها " قضايا الشعر المعاصر".ويُضاف إلى ذلك أنّ جدلًا كبيرًا دار حول قصيدة **"الكوليرا"**، فيما إذا كانت أول قصيدة كتبت في الشعر الحر، أم أن أول قصيدة كانت للسياب الذي قام بنشر قصيدة له بعنوان:"هل كان حبًا" في ديوانه "أزهار ذابلة" في عام 1946 أي قبل أن تنشر الملائكة قصيدتها "كوليرا" بعام. وقد اعترفت الملائكة نفسها بأنّ لها محاولاتٍ شعريَّة بالشكل الحرّ قرابة عام 1932، ومن هنا جاء الخلاف حول ريادة الشعر الحر.

قراءة في قصيدة الكوليرا:

قصيدة الكوليرا هي على وزن البحر المتدارك، وصوّرت فيها مشاعرها وأحاسيسها نحو مصر حين داهمها وباء الكوليرا، وحاولت التعبير عن وقع أرجل الخيل التي تجر عربات الموتى من ضحايا المرض في الريف المصري. وتبدأ القصيدة بقول الشاعرة:

سكَن الليلُ
أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْق الظلمةِ،تحتَ الصمتِ على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ

في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
في كلِ مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ
في كلِ مكانٍ يبكي صوتْ
هذا ما قد مَزَّقهُ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ

الشعر ومنذ بداياته الأولى كان وسيلة للتعبير عن خبايا النفس الإنسانية عن طريق امتزاج الكلمات والأوزان لتبدع لنا صورة ومعنى ضمن إطار وحدود النص. فسواء كانت القصيدة رمزية أو رومانسية أو حتى كلاسيكية فهي تستخدم الصور والتعابير للوصول إلى المعنى الحقيقي الذي يقصده الشاعر وهذا ما عمدت إليه نازك الملائكة في قصيدتها "الكوليرا"، وتبدأ الشاعرة قصيدتها بِـ "سكن الليل" وهذا تبيانٌ للخوف من الغد حين لا تُسمع الأصوات، حين يكون كلُّ شيء صامتًا وكأنَّ الموت قد حل ليلًا، يئّن فيه المتألم كتألمها.

وتعبّر الشاعرة في الأسطر الشعريّة السابقة عن الحزن والألم الذي يملأ البيوت بسبب الموت الذي يحدثه مرض الكوليرا، فالموت يعمّ المكان بصورة واضحة، ولذلك فإن كلمة الموت جاءت مكررة في المقطع الشعري؛ لتعبر عن سيطرة الموت أمام الحياة، فمرض الكوليرا يصنع الموت، والألم، والأنين، والصرخات التي تجعل الأمر لافتًا للنظر، وتتابع وصف ما يحدثه المرض من آثار فتقول الشاعرة:

في صمتِ الفجْر
أصِخْ انظُرْ ركبَ الباكين
عشرةُ أمواتٍ عشرونا
لا تُحْصِ أصِخْ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين
مَوْتَى مَوْتَى ضاعَ العددُ
مَوْتَى موتَى لم يَبْقَ غَدُ

لم تعد الكوليرا مرضا كما نعرفه جميعنا هي رمز لشيء آخر أرادت الشاعرة أن تصل إليه من خلال استخدام الكوليرا كرمز للتعبير عن الصورة الحقيقة التي أرادت للقارئ أن يضعها في مخيلته. ومن هذا المنطلق أصبح النص الأدبي حمال أوجه وتفاسير.

رسمت الشاعرة نازك الملائكة للقارئ صورة مادية ليضعها في مخيلته من خلال كتابتها للقصيدة. ففي القصيدة تخاطب نازك الملائكة شخصا ما ربما يكون القارئ نفسه. فهي تكرر في أكثر من مكان كلمات كأصغ واسمع ولا تحص. كما أن نازك رسمت صورة قاتمة سوداوية للمدينة التي غزاها المرض. فالليل هادئ والصمت سائد ولا شيء يسمع سوى صوت المرضى وأنينهم وأصوات التكبير على جثث الموتى. لكن نازك تعود لترسم صورة الماضي لهذه المدينة فهي وادٍ مرحٍ وضاء تسلل له الموت على هيئة المرض ليفتك بالجميع بلا استثناء ولا فرق عنده بين طفل وشيخ وامرأة.

فالأعداد في تزايُد، والموت يقضي على الناس، ولا يفرّق بين صغير وكبير، فأعداد الموتى لا تحصى، والموت يقضي على أمل الغد والمستقبل، وتنتهي القصيدة بقول الشاعرة:

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
يا مصرُ شعوري مزَّقَهُ ما فعلَ الموتْ

فالموت يقضي على كلّ شيء، ويسود الحزن في كل مكان، والشاعرة هنا يتملّكها الحزن على مصر؛ بسبب ما أحدثه هذا المرض من موت، وحزن، وعند تحليل قصيدة الكوليرا لنازك الملائكة يمكن ملاحظة تغيُّر الشكل الشعريّ، والتغير في توزيع التفعيلات وعددها، واختلاف القافية.